۞ القسم الثالث: الشِّرك في توحيد الإلهيَّة والعبادة، قال القرطبيُّ: أصلُ الشِّركِ المُحرَّم اعتقادُ شريكٍ لله تعالى في الإلهيَّة، وهو الشركُ الأعظمُ، وهو شركُ الجاهلية، ويليه في الرُّتبة اعتقادُ شريكٍ لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقلُّ بإحداثِ فعلٍ وإيجادِه وإن لم يعتقد كونَه إلهاً. هذا كلام القرطبي.

وهو نوعان: أحدُهما: أن يجعل لله نِدّاً يدعوه كما يدعو الله، ويسألُه الشفاعةَ كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبُّه كما يحبُّ الله، ويخشاه كما يخشَى الله، وبالجملة فهو أن يجعل لله نِدًّا يَعبُدُه كما يعبُد الله، وهذا هو الشِّرك الأكبر، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦](١). [١٢]

[شرح١٢] قوله: (كما يعبد الله) المقصود أنه يفعل العبادة كما يفعلها =

---

(١) ص١٦.

....

= لله عن خضوع، وعن ذل، وعن اعتقاد أن هذا العمل ينفعه، وأنه يؤثر، وما سمعنا أنه يعتقد في الولي مثل ما يعتقد في الله، فليس هذا هو المراد.

المراد الذي يعمل هذه الأشياء كما يفعلها مع الله بنية خضوعه وإيمانه بأن هذا الشيء يفيده وينفعه وما أشبه ذلك، ليس المراد أن العابد يكون في عبادته للمخلوق مثل ما يعتقد في الله، فإن المشركين ما قصدوا هذا، فالمشركون عبدوا المخلوقات ولكن ما قصدوا أنها مخلوقات مثل الله، بل قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى، فليس مراد الشارع أن العابد لغير الله يكون باتخاذه معتقداً فيه مثل ما يعتقده في الله، بل مراده أن تُؤدَّى هذه العبادة على الوجه الذي يؤديها لله من خضوع، ومن ذل واستكانة وتأثر لهذا الشيء، لأنه لا يجعله على وجه الأفعال الحسية، وأما ما يفعله على وجه الأسباب الحسية كأن يقول: يا زيد ساعدني على هذا، يا أخي عاوني على عمارة بيتي، أو على إصلاح مزرعتي أو سيارتي لا يفعله على وجه العبادة والخضوع والذل ونحو ذلك من التقرب، وإنما يفعله على وجه العادة، أو على وجه الأسباب الحسية =

....

= من باب التعاون بين الناس في هذه الأشياء.

فهذا بخلاف الذي يأتي الصنم أو عند الولي ويدعوه، فإنه يدعوه دعاء عبادة، ودعاء خضوع وتأثر في قلبه، واعتقاد أن هذا الولي له شأن، وأن هذا الدعاء يؤثر في حال الداعي، ويكسبه فوائد من هذا الولي، فيشفع له عند الله، أويقربه عند الله، أو يشفي مريضه، أو يكون سبباً لصلاح مزرعته، وما أشبه ذلك.

فينبغي أن نفهم هذا، ولا يجوز أن يقال: إنهم يفعلون ذلك عن اعتقاد بأن هذا المدعو معبود من دون الله*.

---

* س: قول الله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] هل يدخل في هذا؟

ج: ليست داخلة في هذا، فالمقصود أنه يحبه كما يحب الله في ذله له وخضوعه له، واعتقاده فيه أنه ينفعه في شفاء المريض، أو قضاء الحاجة، أو رد الغائب أو ما أشبه ذلك، وليس معناه أنه يحبه كما يحب الله معتقداً أنه يخلق كما يخلق الله، ويرزق كما يرزق الله، لا، ولكن فيه جنس خضوع وذل واستفادة من هذه العبادة.

ولو أنه عبده على أنه شفيع عند الله، فإن هذا يكون كفراً وإن كان لا =

....

= يعتقد أنه لا يتصرف في كون أو أنه يرزق أو يخلق أو ما أشبه ذلك.

وهذا بخلاف الأسباب الحسية؛ فليست داخلة في هذا المعنى، ومن هذا قول الله ﷻ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] فهذه استغاثة مخلوق بمخلوق، وهي من باب الأسباب الحسية؛ لأن موسى قوي يستطيع أن ينتقم من هذا القبطي، وهذا هو وجه الفرق، كذلك إذا استغاث بفلان أن يمنعه من عبيده، أو يمنعه من خدمه الآخرين، أو يمنعه من زوجته إن آذته، أو ما أشبه ذلك، فكل هذا من الأمور الحسية، وليس لها تعلق بالعبادة.

س: سؤال غير مسموع.

ج: هذا من الخوف الطبيعي الحسي، وليس بداخل في خوف السر، فالخوف الطبيعي الحسي مثل أن يستشعر أن هناك لصوصاً فيحرص على وضع الحرس، أو إغلاق الأبواب أو ما أشبه ذلك، ومثل أن يهم بفاحشة بامرأة فيستشعر أن لها أقارب في البيت، أو لها ولياً في البيت، أو حولها جيراناً يراقبونه فيحذر- هذه كلها أسباب حسية.

ومن هذا القبيل ما ذكره الله جل وعلا عن موسى ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١] خرج من مصر خائفاً يترقب، فهذا خوف طبيعي، يخاف عَسَس فرعون وجنوده ومراقبيه الذين يتبعون المجرمين وما أشبه ذلك. =

....

= والخوف ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خوف السر.

النوع الثاني: الخوف الذي يحمل على فعل محرم أو ترك واجب.

النوع الثالث: الخوف الطبيعي أو الحسي الذي لا يحمل على ترك واجب أو فعل محرم.

فالأول شرك، والثاني معصية، والثالث جائز، فخوف السر شرك بالله، والخوف الذي يحمل على ترك واجب أو فعل محرم، معصية، والخوف الذي لا يحمل على شيء من ذلك وهو الخوف الطبيعي كاتقاء الحر والبرد والحيات والسباع، والظلمة والسُّرّاق وأخذ الأسباب لذلك، فهذا خوف لا بأس به ولا حرج فيه، بل قد يؤجر عليه إذا كان له نية صالحة.

فالخوف الطبيعي والحسي غير الخوف السري الذي يعتقد صاحبه أن هذا الولي يؤثر فيه، (شاور به) على ما يقولون، يعني: أن عنده شيئاً من المغيَّبات حتى إنه ليعلم عدوه من صديقه في سره.

س: هل يفضي هذا الخوف الحسي إلى ثواب أو عقاب؟

ج: لا؛ لا يفضي إلى شيء، فالخوف الحسي لا حرج فيه، فالإنسان مأمور أن يتقي الشرور، ولكن قد يفضي إلى ثواب أو عقاب إذا حمله خوفه الحسي على ترك الواجبات وفعل المحرمات، وإذا حمله الخوف الحسي على =

....

= أداء ما أوجب الله عليه وعلى صيانة محارمه فقد يثاب على هذا الشيء؛ لأنه مأجور في صيانة محارمه، وفي حفظ أولاده، وفي حفظ ما أنعم الله به عليه، حتى يستعين به على طاعة الله، فيثاب عليه وإن كان خوفاً حسياً.

فهو مأمور ـ مثلاً ـ بأن يتقي المهالك ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] فإذا اتقى الأسد أو الذئب أو الحية أو العقرب، وأخذ بأسباب الوقاية طاعة لله بنية صالحة أُجِر على ذلك.

س: وردت هذه الآية ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ في آيات الإنفاق خاصة أم يصح الاستدلال بها عامة؟

ج: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، نعم هي نزلت في الأنصار لما أرادوا أن يجلسوا في حروثهم حتى لا تضيع، ويتركوا الجهاد؛ لأن المسلمين كانوا قد كثروا والجهاد قد اتسع، فأنزل الله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فذكر أن التهلكة هي أن يَدَعُوا الجهاد، ويجلسوا في المزارع[1]، ولكن عند العلماء قاعدة أن الاعتبار في النصوص بعموم ألفاظها لا بخصوص أسبابها، فإذا جاء النص في سبب من الأسباب فالعبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

فهذا عامّ، فليس لك أن تلقي بنفسك من الجبل وتقول: إذا كان مقدراً =

(١) انظر: الترمذي: تفسير القرآن (٢٩٧٢)، وأبو داود: الجهاد (٢٥١٢).

....

= لي أن أموت فسوف أموت، أو تلقي نفسك في بئر، أو تذبح نفسك بسكين، أو تأكل السم؛ لأنه معروف أن هذا يضر بك، وهذا مأخوذ من عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

س: هل يدخل في هذا الذي يشرب الدخان؟

ج: نعم؛ فالذي يشرب الدخان يلقي بيده إلى التهلكة، لا سيما إذا أكثر منه فإن التهلكة تكون أكثر، وقد أجمع الأطباء، وأجمع العارفون به أنه من أعظم المواد المضرة بالإنسان وبصحته، وذكر الأطباء أخيراً أنه يفضي إلى أمراض متعددة منها السرطان، نعوذ بالله منه، نسأل الله السلامة.

س: هل يدخل في الإلقاء إلى التهلكة من يقود السيارة بسرعة فيصدم أحداً؟

ج: هذا ليس ظالماً لنفسه فقط، بل هو مجرم وظالم، فإذا أسرع السرعة التي يخشى منها، أو تساهل في السير بالتحدث مع أصحابه وما يبالي، أو يقود وفيه شيء من النوم، كل هذا لا يجوز، بل يجب عليه أن يحذر من هذه الأشياء؛ لأنه لا يضر نفسه فقط ولكن يضر الناس أيضاً، ولا شك أن هذا من قبيل التهلكة، ومن الظلم للناس، ومن العدوان عليهم، فقد جمع بين أسباب الظلم وبين إلقاء نفسه في التهلكة. نسأل الله العافية. =

....

= س: سؤال عن الشرك.

ج: لا، شرك عام، عبادة الأصنام والأوثان والأشخاص ما هو خاص، المشركون عبدوا الأصنام، وعبدوا غير الأصنام، لا، هذه أقوال بعض المشركين، الشرك في الأصنام وغير الأصنام، قد عبدوا غير الأصنام، عبدوا الأشجار، ولا تسمى أصناماً وقد عبدوا أحجاراً، وهي ليست بصنم، الصنم منحوت على صورة تسمى صنم، فهم عبدوها وعبدوا غيرها، عبدوا العزى وليست صنماً، عبدوا اللات وليست صنماً، وإنما هي حجر منقوش، وعبدوا مناة وهي حجر فقط، وعبدوا أشياء كثيرة غير الأصنام، وعبدوا الكواكب وعبدوا غيرها.

س: ما حكم من يسافر إلى بلاد الكفار لدعوتهم؟

ج: النبي ﷺ اكتفى بمراسلة رؤسائهم، وهم يسمعون كل شيء في الإذاعة ولا يدعون شيئاً، هذه سياستهم يعرفون ما في الشرق الأوسط والشرق الأقصى.

ثم إن السفر إليهم خطر على المسلم، والرسول ﷺ لم يأمر الصحابة أن يسافروا إلى بلادهم أو يدخلوا ويتجولوا فيها، وإنما كتب إلى رؤسائهم؛ لأن الأمم تابعة للرؤساء، ثم أمر بالجهاد، فالجهاد هو الواجب، فيجاهد الناس أولاً ثم يبلغهم عند الجهاد، عسى الله أن يكتب لنا الجهاد. =

....

= **س: ولكن هم يعتقدون أن الإسلام الآن أتاهم مشوهاً، حتى إنهم يأتون إلى السعودية فيرون ما يرون من كثرة المخالفين للإسلام فيقولون: الإسلام ما نفع أهله فكيف ينفعنا؟**

ج: الإسلام لا يؤخذ من نفس أهله، وإنما يؤخذ من الأدلة التي تقام من كتاب الله الذي أنزل لعباده وسنة الرسول ﷺ وطريقته ومن أصحابه الذين حملوا سنته، فكم لله من داعية يخالف قوله فعله وفعله قوله، ولكن الراغب في الحق يسأل عما جاء به النبي ﷺ وعما بعث الله به رسوله، وعن الكتاب المنزل، ويتفقه في اللغة، ويتعلم ويصير حريصاً، ويسأل أهله عما يجهل.

ثم يجب على الدعاة أنفسهم أن يبذلوا وسعهم، ويجب عليهم أن يطبقوا أقوالهم وأعمالهم على ضوء الكتاب والسنة، وأن تكون أقوالهم لا تخالف أفعالهم، وأفعالهم لا تخالف أقوالهم؛ حتى يكونوا دعاة بالفعل والقول جميعاً، هذا هو الواجب عليهم، ولكن عدم قيامهم به لا يدل على أنه ليس بواجب، فعدم القيام نقص فيهم ويخشى عليهم من معرته وتبعته.

ثم أمر آخر ينبغي أن يعلم، أنه ليس من شرط الداعي أن يكون كاملاً في كل شيء، وإنما الواجب أن يبذل وسعه، وأن يجتهد في أن يكمل نفسه وأن يستقيم، ولكن ليس من شرطه ذلك، بل يجب على كل أحد أن =

....

= يدعوَ الله حسب علمه وطاقته وبصيرته وإن كان عنده نقص.

س: هل يجوز شرعاً إرسال أشخاص للدعوة إلى الله وهم تاركون للجانب العملي من الإسلام؟

ج: الواجب عند إرسال الدعاة أن يختار باعثهم الأخيار الذين يدعون إلى الله بأفعالهم وأقوالهم، ولا يكون سُبَّةً للمسلمين، بل يختار من الدعاة مهما أمكن الأخيار في أقوالهم وأفعالهم وعلمهم وسيرتهم، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فإذا لم يتيسر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

فبعث الدعاة وإن كان فيهم نقص خير من عدم بعث الدعاة؛ لأنهم يرسلون إلى أناس فيهم الشر الكثير والبلاء العظيم، ولكن إذا تيسر أن يختار فلا شك أنه يختار الأخيار الذين هم دعاة بأقوالهم وأفعالهم، والله يكثرهم ويجعلنا منهم.

۞ وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨](١). [١٣]

[شرح١٣] هذا يبين لنا فائدة عظيمة جداً جداً جداً؛ لأن بعض المشركين يشبهون، إذا قيل له: لماذا تدعو البدوي أو تدعو الحسين أو النبي ﷺ أو عبد القادر الجيلاني يقول: أنا لا أعتقد أنهم ينفعوني أو يضروني. يا سبحان الله! لقد قال قبلك المشركون مثل قولك؛ قال الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

فالذين قبلك مثل أبي جهل وأشباهه قصدوا أن هذه الآلهة تشفع لهم، فيحصل لهم مقصودهم من شفاء مريض، أو نصر على عدو أو ما أشبه ذلك، فأنت مثلهم؛ فإذا دعوت البدوي أو دعوت الحسين أو النبي محمداً ﷺ أو عبد القادر الجيلاني أو فلاناً أو فلاناً أو ابن عَلْوان أو الهادي أو المهدي، فقد أشركت بالله، وإن كنت لا =

---

(١) ص٢٦-٢٧.

....

= تعتقد أن الهادي أو البدوي أو الحسين يصرفون الكون، فالمشركون لم يقصدوا هذا.

بل نفس اعتقادك أن هذه الدعوة تنفعك، وأنه يشفع لك عند الله حتى تجاب دعوتك، وحتى يشفى مريضك، وحتى تسلم زراعتك، وحتى تسلم حيواناتك، فهذا كاف للقول بالشرك، فقصدك كقصد المشركين الأولين.

فالأولون لم يقصدوا أن آلهتهم تنفعهم من دون الله، أو تضرهم من دون الله، أو أنها تصرف الكون ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥] فالمقصود أنهم معترفون بأن الله هو الضار النافع، المعطي المانع، القادر على كل شيء، ولكنهم يزعمون أن آلهتهم تشفع وتقرب فقط، هذا هو قصد أولئك، وهذا قصد المتأخرين.

بل زاد بعض المتأخرين شرّاً آخر، فظنوا أن آلهتهم تصرِّف الكون، حتى حكوا عن بعض المصريين أنهم يقولون: لا تخرج ذرة من مصر ولا تدخل ذرة في مصر إلا والبدوي يعلم ذلك، وذُكِر =

....

= عنهم أنه قِيل لبعضهم: ألا تدعو الله؟ قال: لا، الولي أعجل. يعني: أسرع إجابة، أي: أن ما عند الله يبطئ، أما هذا فأسرع، فندعو الأولياء لأنهم أسرع إجابة.

هكذا تلعب بهم الجن والشياطين، فقد يدعو أحدهم الله ولا يحصل له مطلوبه، وقد يدعو الولي فتقضيه الشياطين له، يطلب من الولي كذا وكذا فتأتي الشياطين له بمطلوبه، فيقع في الشرك والعياذ بالله*.

*** س: هل ندعو هؤلاء على أنهم مسلمون الإسلام الصادق أم ندعوهم على أنهم مشركون؟**

ج: تدعوهم على أن عملهم هذا شرك، وأن الواجب عليهم انتقالهم من العمى إلى توحيد الله، ويبين لهم أن هذه الأعمال شركية، وأن هذا كفر وضلال، والواجب على الداعية وعلى العلماء أن يوضحوا لهم ولا يحابوهم، فعليهم أن يوضحوا لهم أن هذا نفسه شرك صريح، وأن هذا فعل الجاهلية الأولى.

وأما الحكم على شخص معين فلان بن فلان أنه مشرك فهذا محل بحث عند العلماء، هل تبينت الحجة له؟ وهل بلغته أم لا؟ وهل شبه عليه؟ وهذا =

....

= بحث آخر، ولكن نفس أعمالهم شرك بلا شك.

س: وإذا حاول أحد أن يدعوهم فقالوا له: أنت وهابي، وأنت كذا وكذا.

ج: يكون قد أدى ما عليه والحمد لله، والرسول نفسه ﷺ بلغهم فقالوا له: أنت صابئ، وأنت شاعر، وأنت مجنون، ما ضره ﷺ.

س: قضية العذر بالجهل بالنسبة للحلال والحرام وبالنسبة للعقيدة، إذا ارتكب إنسان محرماً وهو لا يدري، لم يبلغه النهي أو الحديث وما إلى ذلك، وكان مستحلاً له، فما حكمه؟

ج: إذا كان مثله من عامة الناس يجهل يبلغ ولا يأثم بذلك، لكن يخشى عليه من جهة تساهله وعدم العناية بالسؤال، النبي ﷺ لما جاءه الرجل الذي لبس جبة وقد أحرم بعمرة لم يجبه حتى أوحى الله إليه، ثم قال له: «انزع الجُبَّةَ، واغسِل أثرَ الخَلُوق، واصنَع في عُمرَتِك كما تصنَع في حَجَّتِكَ»[1]، ولم يقل: عليك كذا وعليك كذا؛ لأنه جاهل، كذلك الذي صلى وعجل في الصلاة وقال له النبي ﷺ: «ارجِعْ فصَلِّ، فإنَّك لم تُصَلِّ»[2]، فعلها ثلاث مرات، وأعادها النبي ﷺ ثلاث مرات، ثم علَّمه ولم يأمره بإعادة الصلوات الماضية، في الأوقات الأخرى السابقة، بل أقره، ترك ذلك =

(١) أخرجه البخاري: العمرة (١٧٨٩)، ومسلم: الحج (١١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: الأذان (٧٥٧)، ومسلم: الصلاة (٣٩٧).

....

= لأجل جهله.

فالحاصل أن الإنسان الذي جهل الحكم الشرعي لا يؤخذ بالماضي، ولكن يُعَلَّم في الوقت الحاضر ويؤمر وينهى ويرشد وينصح، فإذا كان بين المسلمين وبين أهل العلم ثم لا يسأل، فهو مؤاخذ بجريمته وعدم سؤاله وعدم عنايته بهذا الشيء الواجب عليه، والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] وقد بعث الرسول، وأنت بين أهل العلم، وأنت بين أهل كتاب الله، فعليك أن تسأل.

ولكن إذا كان هناك مثله من الجهلة الأغبياء أو العامة الذين لا يحسنون فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن مثل هذه الأمور لا بد من تبليغه إياها إذا لم تكن من الأمور الظاهرة، وأما إذا كانت من الأمور الظاهرة؛ مثل الزنى، أو الخمر، أو ظلم الناس، أو العدوان عليهم في أموالهم، أو غير ذلك مما لا يخفى أنه محرم، فهذا ما لا يعذر به الجهلة؛ لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة، يعرفه العامي وغير العامي.

ولكن الأمور الدقيقة التي قد تخفى على العامي ينبغي ألا يؤاخذ بها حتى تقام عليه الحجة ويبلغ؛ مثل بعض مسائل الحج، وبعض مسائل الصيام التي قد تخفى على العامي.

س: ورد عن بعض الصحابة أنهم كانوا يشربون الخمر.

ج: شرب بعضهم اعتقاداً منهم أنه يحل لمن استقام على دين الله واستقام =

....

= على الإيمان، ولكن استتابهم الصحابة واستتابهم عمر، وقالوا في حقهم: إن أقروا به أقيم عليهم الحد، وإن جحدوا تحريمه كفروا، فاعترفوا بعد ذلك، وعرفوا أنهم مخطئون فتابوا وتاب الله جل وعلا عليهم ، فقد تأولوا قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ [المائدة:٩٣].

فظنوا أنهم إذا اتقوا وآمنوا لم يكن عليهم حرج، ولا يمكن تقوى مع الخمر، فمن التقوى ترك الخمر، ومن التقوى ترك المعاصي، فلا يكون حرج على من اتقى الله إذا أخطأ في شيء أو جهل شيئاً قد يخفى على مثله.

وأما الأمور الظاهرة التي قد أبان الله حكمها فلا عذر لأحد في تعاطيها؛ كالزنى، والخمر، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، وأكل الربا، والغيبة والنميمة، وما أشبه ذلك من الأمور الظاهرة.

وأعظم من ذلك الشرك بالله؛ فإن الله فطر العباد على إنكاره، فلقد جاءت الآيات والنصوص بإنكاره؛ فلهذا ذهب جمع من أهل العلم إلى أنه لا عذر لأحد في الوقوع في الشرك، ولا يسمع قوله: إنه جاهل؛ لأن الله أوضح في كتابه العظيم وسنة نبيه الكريم أمر الشرك.

فهذا الجاهل إنما أُتي من جهة إعراضه، ومن جهة عدم سؤاله، ومن عدم تقصيه الحق، فهو قد ابتلي؛ فلهذا يحكم بكفره وشركه ولو زعم أنه جاهل؛ لأن هذه أمور معلومة من الدين بالضرورة، وقال آخرون: بل يعذر =

....

= بالجهالة في عدم تكفيره بعينه فلان بن فلان حتى تقام عليه الحجة، فيقال: عملك كفر، أو دعوتك البدوي كفر وضلال وشرك، ولكي نحكم عليه بالردة لا بد أن نبلغه هذا الشيء، فإن أصر وجب قتله مرتداً، وإن رجع إلى الحق فالحمد لله، ولكن اسم عمله كفر وشرك.

فسواء دعا البدوي أو الحسين أو المرسي أو فلاناً أو فلاناً كان هذا ولا شك كفر وضلال، أما أنت بنفسك يا فلان ابن فلان، يا زيد بن عمرو أو عمرو بن زيد، يا فلان بن فلان أنت كافر، فلا بد أن نقيم عليه الحجة ونبين له: قال الله كذا، قال الرسول كذا، حتى يفهم أن عمله هذا شرك، فإذا أصر ولم يستجب إلى الدعوة، ولم يتب حينئذ نحكم عليه بالردة والقتل.

س: هل بالنسبة للحلال والحرام يعذر بالجهل؟

ج: الأمر على إطلاقه في الحلال والحرام، ولأنه هناك من الأمور الدقيقة التي قد تخفى على من بين المسلمين، أما الذين في الغابات البعيدة والمحلات البعيدة والمجاهل التي لا يصل إليها القرآن ولا السنة فهذا يعتبر من أهل الفترة، فإذا كان في محل لا يبلغه الإسلام فهؤلاء لهم شأن أهل الفترات فيعاملون يوم القيامة معاملة أهل الفترة.

وأما المسلم بين المسلمين فلا، بل يؤخذ بالأمور الظاهرة ولا يعذر، فلو زنى وقال: ما أدري أن الزنى حرام، لا يسمع، بل يقام عليه الحد؛ لأن هذا أمر لا يخفى على المسلمين، وهكذا إذا شرب الخمر أو المسكر فلا يخفى =

....

= على المسلمين، كذلك إذا ضرب إنساناً يُقاد له منه حتى وإن قال مثلاً: ضربته وأحسب ضربه جائز لي.

وكذلك إذا قتله يقام عليه القصاص والدية، ولا يعذر بقوله: إني جاهل، ففي الأمور الظاهرة لا يعذر فيها بالجهالة، وأما الأمور الخفية فقد يعذر في بعضها بالجهالة، وهي محل اجتهاد للقاضي وولي الأمر.

س: إذا تعارض فعل سنة مع أمر الوالدين بتركها، فماذا يفعل وطاعة الوالدين واجبة وهذه سنة؟

ج: إذا كان لهم مصلحة في ذلك تترك السنة، فإذا كان لهم مصلحة كأن تدون لهم بعض الأشياء، أو تعينهم على إعاشتهم، أو أن يكون أحدهما مستوحشاً ويريد أن تجلس عنده تؤنس وحشته وما أشبه ذلك.

يقول شيخ الإسلام: إن طاعة الوالدين تجب إذا اشتملت على أمرين: أن يكون لهم فيها منفعة، وليس على الولد فيها مضرة، فإذا كانت لا منفعة لهم فيها أو عليه مضرة فلا تجب طاعتهم فيها، لقول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»(١).

فإذا قالوا مثلاً: لا تطلب العلم، فهذه مضرة على الإنسان، فلا يطعهم في عدم طلب العلم، ويطلب العلم؛ لأنه واجب عليه أن يتعلم ويتفقه في =

(١) أخرجه ابن ماجه: الأحكام (٢٣٤٠).

....

= دينه، أو قالوا: لا تصل في الجماعة، وأي شيء يضرهم في ذلك، بل صل في الجماعة، ولكن لو قدر أن أباه مريض أو على خطر أو مثلاً عنده والدة مستوحشة ما تستطيع البقاء في البيت وحدَها لأسباب اضطرت إلى ذلك فهذا عذر له في ترك الجماعة وما أشبه ذلك.

فالحاصل أنه إذا أمروه بشيء أو نهوه عن شيء فإن كان معصية لله فلا طاعة لمخلوق في معصية، وإن كان غير معصية ينظر، فإن كان فيه منفعة ولا مضرة على الولد وجبت طاعتهم؛ لأن طاعتهم واجبة، أما إذا كان لا منفعة لهم فيه أو عليه مضرة فيه فلا، إنما الطاعة في المعروف.

فإذا كانوا أمروه بشيء يضره وإن كان غير معصية فهو في الجملة معصية إذا نظر فيه، مثل أمره أن لا يطلب العلم، أو لا يحضر حلقات العلم، أو لا يخرج إلى صلاة الجماعة، أو لا يزكي أو ما أشبه ذلك، فهذه في الحقيقة معصية، لأنه يلزمه التفقه في الدين، ويلزمه حضور الجماعة، إلى غير ذلك.

س: حديث: **«ففيهما فجاهد»**[١].

ج: هذا في جهاد التطوع.

س: **وطلب العلم؟**

ج: طلب العلم تطوع إذا كان قد استوفى المعلومات اللازمة له، وأما =

---

(١) أخرجه البخاري: الجهاد (٣٠٠٤)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٤٩).

....

= إذا كان لم يتعلم بعد فطلب العلم واجب عليه في الجملة «مَن يردِ اللهُ به خيراً يفقهه في الدين»[(١)].

س: ماذا إذا أراد أن يجعل مثلاً ثوبه إلى نصف الساق لتطبيق السنة؟

ج: أولاً السنة من النصف إلى الكعب، وليست السنة خاصة بنصف الساق، فإزارته تبتدئ من نصف الساق إلى الكعب، هذا هو المحل، فإذا قالا له: أرخ إلى الكعب، يلزمه طاعتهم بالمعروف، وما تحت الكعب فهذا منكر: «ما أسفل الكعبين فهو في النار»[(٢)]، لكن إلى الكعب جائز والحمد لله فلا يخالف والديه.

س: أليست السُّنة نصف الساق؟

ج: السُّنة نصف الساق إلى الكعب لا فوقه ولا تحته، فما بين هذين الموضعين هو السنة نصف الساق إلى الكعب.

س: سؤال غير مسموع.

ج: ينبغي أن يقول: هذا كفر، وأما أن يكفره فلا، لأنه قد يكون له أعذار، فقد يكون له أسباب تمنع من كفره، فيقول: عملك هذا كفر، ثم ينظر في تكفيره بعينه، فالداعية يوضح أولاً، ولا يبادر فيقول: كافر؛ لأن =

(١) أخرجه البخاري: العلم (٧١)، ومسلم: الزكاة (١٠٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود: اللباس (٤٠٩٣)، وابن ماجه: اللباس (٣٥٧٣).

....

= هذا تنفير له، وفيه صدّ عن الحق وعن التفهم، فلا يعجل، وليوضح له، فإذا أصر يقول: أنت تكون بهذا كافر، إذا كان في الأمور التي قد تخفى، والمحكمة تنظر فيه وتحكم عليه بما يقتضيه الشرع.

س: **سؤال يبدو أنه: رجل يرتكب بعض المحرمات (أظنه: يحلق لحيته) وهو يعمل الصالحات، فهل يوصف بأنه من المتقين؟**

ج: يقال: مسلم أو مؤمن عاص، وأما أن يقال: من المتقين فمحل نظر، فالمتقون هم الذين اتقوا محارم الله، فيقال: مسلم عاص، أو مؤمن عاص، وهذا هو الأولى، وأما أن يقال: بر أو تقي أو مؤمن وهو يتعاطى المعاصي فلا، فهذا عند أهل السنة والجماعة نقص في الإيمان.

س: **ولو كان يقصها قصاً؟**

ج: القص معصية، والحلق أكبر.

س: **ومن له قطعتان عوارض؟**

ج: العوارض من اللحية.

س: **الشخص الذي لا يشهد الصلاة، ولا يرى في أي نوع من أنواع الصلاة، كيف يكون الحكم عليه؟**

ج: يقال له: ترك الصلاة كفر، فقد يكون يصلي في بيته، **فتقول له: ترك** الصلاة كفر، اتق الله، صل في المسجد، **صل مع الجماعة، صلاة الجماعة =**

....

= واجبة، ترك صلاة الجماعة نفاق، فاتق الله، أما أن تقول: أنت كافر رأساً، فلا؛ لأنه قد يكون له أعذار في ترك الجماعة، فقد يكون يصلي في بيته، فيكون عاصياً لله لا كافراً.

س: سؤال غير واضح عمن لا يصلي في المسجد جماعة!

ج: هذا نفاق، فتقول له مثل ما قال ابن مسعود: ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق(١)، والنفاق قسمان:

نفاق عملي أصغر، ونفاق اعتقادي أكبر، وهذا من النفاق العملي، فلا يكون كفراً وردة، فتقول مثل ما قال الصحابة: منافق، قصدك بها النفاق الأصغر، فترك صلاة الجماعة بغير عذر نفاق، الكذب من النفاق، الغدر من النفاق، وما أشبه ذلك من باب التنفير، ولكن لا تحكم عليه بالكفر حتى تستبرئ، يعني: حتى تقيم عليه الحجة حتى تستبرئ لدينه.

ثم إن المسارعة إلى هذه الأشياء خطيرة؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: يا عدوَّ الله، وليس كذلك إلا حارَ عليه»(٢)، يعني: رجع عليه قوله، وهذا في «الصحيحين» عن أبي ذر وغيره، فدعوة الناس بالكفر خطيرة فالأولى التثبت فيها. =

(١) أخرجه مسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٦٥٤).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (٦١).

....

= س: بعض الدعاة ينعت بعض الناس بالفسق والنفاق؟

ج: الداعي إلى الله يتجنب هذه الألفاظ إلا بعد التثبت، فالداعي إلى الله يسلك وسائل أفضل لا تنفر، حتى يقربهم من الخير ولا ينفرهم من الخير، إلا إذا أقام عليه الحجة بعد ذلك وعاند، فيقول: أنت بهذا فاسق، أنت بهذا منافق، أنت بذلك كذا، ولكن إذا أراد أن يدعوه إلى الله قال: يا أخي، هذا لا يجوز، الواجب عليك صلاة الجماعة، الواجب عليك توفير اللحية ... ولا يقول: يا فاسق ... فلا يبدأ بهذا الكلام، فينفره من الحق ويصير بينه وبينه نزاع ومضاربة.

س: ماذا في رجل دعوته إلى الصلاة فلم يجب، وتمادى في ذلك حتى إنه مات وإنه لا يصلي ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة؟

ج: إذا أصر تُبيِّن له أن هذا فسق وهذا نفاق، ولا تيأس، وإذا مات على هذا فله رب يحاسبه وأنت أديت ما عليك.

س: فهل تجب علي الصلاة على جنازته؟

ج: إن صليت عليه فلا بأس؛ لأنك تظن أنه يصلي في بيته، وإذا تجنبت الصلاة عليه لأنك تشك فيه فلا بأس، فأنت معذور إذا تركت الصلاة عليه.

س: حتى الجمعة ما كان يصليها؟

ج: ظاهره الكفر والعياذ بالله، فإذا تركت الصلاة عليه فهو الأحوط، إلا أنه قد يصلي الجمعة في محل آخر وأنت لا تدري، ولكن على كل حال =

....

= العمل بالظواهر ينفع.

س: المساجد قليلة، ونحن نعلم أن ليس هناك مسجد قريب إلا هذا المسجد، فهذا ظاهر.

ج: مثل هذا ينكر عليه ويغلظ عليه، ويؤدب من ولاة الأمور ولا يترك هكذا.

س: الجار إذا كان لا يصلي هل أجيب دعوته؟

ج: يستحق الهجر، فإذا رأيت مصلحة في الهجر فلا تجب دعوته ولا تسلم عليه؛ لعل الله يهديه، وإن رأيت المصلحة في أن تواصل الدعوة والكلام معه وأن هذا أولى من هجره فافعل الذي تراه مصلحة، لا الذي يوافق دنياك ولا هواك، ولكن الذي تراه مصلحة في الدين.

فإذا رأيت المصلحة في الدين تقتضي أنك تواصل الدعوة، وتواصل الكلام معه، وتقربه من الله فافعل، وإن رأيت الهجر أنفع فاهجره ولا تجب دعوته، ولا تتكلم معه بشيء، وإذا قال لك شيئاً فقل: أنا دعوتك ولا نفع فيك.

س: ما حكم رجل ينكر وجود الله؟

ج: يبلغ عنه ولاة الأمور لعله يقتل إن شاء الله.

س: مارأيك برجل مثلاً يتعبد في كنيسته بحسن نية، ورجل نشأ بين أب يهودي وأم نصرانية ولا يستطيع أن يعرف هذا الدين؟ =

....

= ج: إذا ما بلغه الدين فهو من أهل الفترة، ما بلغه القرآن ولا السنة فهو من أهل الفترة.

س: مَن هم أهل الفترة؟

ج: أهل الفترة من لم يبلغهم دعوة الرسول.

س: فما حكمهم؟

ج: يمتحنون يوم القيامة، يمتحنهم الله يوم القيامة، فمن لم يجب إلى ما أمر الله به يوم القيامة صار إلى النار، وهذا أحسن ما قيل فيهم.

۞ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤] والآياتُ في النهي عن هذا الشِّرك وبيانِ بُطْلانِه كثيرةٌ جدّاً.

الثاني: الشِّركُ الأصغرُ؛ كيَسيرِ الرِّياءِ، والتصنُّعِ للمخلوقِ، وعدم الإخلاصِ لله تعالى في العبادة، بل يعمل لِـحَظٍّ نفسِه تارةً، ولطلبِ الدنيا تارةً، ولطلبِ المنزِلَة والجاه عند الخَلقِ تارةً، فلله مِن عمله نصيبٌ، ولغيرِه منه نصيبٌ(١). [١٤]

[شرح١٤] ومن هذا الحديث الصحيح: «مَن سمَّع سَمَّع الله به، ومَن رَاءَى رَاءَى الله به»(٢)، والحديث الآخر: «إن أخوفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغر» قالوا: وما الشركُ الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياءُ، يقول الله ﷻ لهم يومَ القيامة إذا جُزِيَ الناسُ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتُم تُراؤُون في الدّنيا، فانظُروا هل =

---

(١) ص٢٧.

(٢) أخرجه البخاري: الرقاق (٦٤٩٩)، ومسلم: الزهد والرقائق (٢٩٨٦).

....

= تجدونَ عندهم جَزاءً»[١].

والحديث الآخر: «ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الشركُ الخفيُّ؛ أن يقومَ الرجلُ يصلِّي فيُزيِّنُ صلاتَه لما يَرَى مِن نظرِ الرجلِ إليه»[٢]. فكونه يرائي بقراءته، أو يرائي بصلاته، أو يرائي بأمره بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يرائي بالدعاء والاستغفار عند الناس، أو ما أشبه ذلك، من هذا الجنس، من هذا الرياء الذي هو الشرك الأصغر، نعوذ بالله.

وأما الرياء الأكبر والشرك الأكبر، فكونه يتبع الحق رياء، يصدق بمحمد في الظاهر، ويتبعه في الظاهر رياء، ولكنه لا يؤمن بمحمد كالمنافقين في الاعتقاد ـ نعوذ بالله ـ فهذه ردة، وهذا كفر أكبر ـ نعوذ بالله ـ وإنما تابع الحق رياء، ولا يعتقد أنه حق، كعمل المنافقين الذين قال فيهم جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]. =

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه: الزهد (٤٢٠٤)، وأحمد (٣/ ٣٠).

....

= هؤلاء مراؤون رياء أكبر؛ يعني: كفراً أكبر ـ نعوذ بالله ـ بخلاف ما يعرض للمسلم الذي يؤمن بالله ويوحده ويعلم أنه حق، وأن نبيه حق عليه الصلاة والسلام، ولكن يعرض له في بعض الأعمال نوع من مراءاة الناس ليثنوا عليه أو ليمدحوه أو ليعطوه شيئاً، هذا هو الرياء العارض، الرياء العملي*.

*** س: قول أبي موسى الأشعري ﷺ للنبي ﷺ: «أما إني لو علمت بمكانك لحبَّرته لك تحبيراً»[1]؟**

ج: الظاهر أنه غير داخل في هذا؛ لأن القصد ليس قصد المراءاة، ولكن قصده أن يرتاح لذلك النبي ﷺ ويأنس به ويتلذذ بهذا الشيء، لا من قصد الحظ العاجل، هذا هو المحمل الذي يريده أبو موسى ﷺ، وتحسين الصوت ليستفيد الناس، ولتخشع قلوبهم، ولترق قلوبهم، ليس من قصد الرياء، بل هذا مطلوب، بخلاف من يحسن صوته ليمدح أو يثنى عليه، أو يقرأ أصلاً قراءة ليمدح أو يثنى عليه، بخلاف ما إذا كان أراد بذلك أن المستمعين يرتاحون لهذا الشيء ويتلذذون ويخشعون في سماعه فيستفيدون أكثر، فهو في هذا مأجور.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢).

۞ ويَتبعُ هذا النوعَ الشركُ بالله في الألفاظ؛ كالحَلِف بغيرِ الله، وقولُ ما شاءَ اللهُ وشئتَ، وما لي إلا الله وأنتَ، وأنا في حَسْبِ الله وحَسْبِكَ ونحوه، وقد يكون ذلك شِركاً أكبرَ بحسب حالِ قائله ومقصده، هذا حاصلُ كلامِ ابن القيم وغيره(١). [١٥]

[شرح١٥] من هذا قول الحديث: «لا تقولوا: ما شاءَ الله وشاءَ فلانٌ، ولكن قولوا: ما شاء اللهُ ثم شاء فلانٌ»(٢). من هذا حديث الثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى، الذين جاءهم الملَك وقال: أنا رجل غريب ولا أبلغ إلا بالله ثم بك(٣).

قال: بالله ثم بك، هذا هو الطريق السويّ، وهذا هو الحق، بخلاف ما إذا قال: أنا بالله وبك، إلا بالله وبك، فهذا من نوع الشرك الأصغر؛ لأن الواو تقتضي مطلق الجمع، مطلق التشريك، والله جل وعلا لا شريك له في تصرفاته ﷻ، وإن كان العبد لا =

---

(١) ص٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود: الأدب (٤٩٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٩٨).

(٣) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم: الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

....

= يعتقد هذا، ولكن هذه الألفاظ ينبغي التأدب فيها، فيؤتى بالعبارة التي تليق بالله ﷻ، ويكون العبد متأخراً متراخياً.

ولأن (ثم) للترتيب والتراخي، فينبغي أن توجد هنا؛ لأن العبد لا يدنو من الله ولا يقرب منه ﷻ، بل الله مستقل بكل شيء وله التصرف الكامل، والعبد ضعيف وقدرته محدودة، فالإتيان بـ(ثم) هو المناسب في هذا المقام في هذه الألفاظ، ما شاء الله وشاء فلان، لولا الله وفلان، هذا من الله وفلان، وما أشبه ذلك، فهذا فيه نوع من المساواة، نوع من التشريك المطلق، وهذا لا يليق بالعبد مع ربه ﷻ، فلهذا جاءت النصوص بـ(ثم) لبيان انفصال العبد عن الله وأنه لا يساويه، بل بينه وبينه مسافة ﷻ.

لكن قد يقع شرك وقد يكون شركاً أكبر إذا اعتقد أن العبد له تصرف في الكون، فهذا يكون شركاً أكبر بسبب الاعتقاد، قال: أنا بالله وبك؛ يعتقد أن هذا الولي له تصرف في الكون، وأن الله جعل له تصرفاً في الكون، فهذا كفر أكبر وشرك أكبر، أو قال: هذا من الله ومنك؛ يعتقد أن له تصرفاً في الكون، وأن له قدرة واستقلالاً في =

....

= هذه الأشياء، ولكن قد أتى بهذه الألفاظ من باب التأدب، وإلا فهو يعتقد في وليه أنه يتصرف، فهذا يكون شركاً أكبر بسبب العقيدة لا بسبب اللفظ.

وهكذا الحَلِف بغير الله، إذا قال: بالنبي أو بعبد القادر أو بالحسين أو بعليّ، وهو يعتقد أن هؤلاء لهم من العظمة مثل عظمة الله، أو أن تصرفهم متساوٍ مع الله، أو ما أشبه ذلك، يكون حلفه بهم حلفاً بغير الله كفراً أكبر لعقيدته الخبيثة.

وأما إذا كان يقولها باللسان، ويعلم أنهم ليس لهم استقلال ولا تصرف في الكون، وأنهم من عبيد الله، وأنهم ليس لهم في تصرف ملك الله نصيب، وأنهم لا يصلحون لأن يعبدوا من دون الله، وإنما قال هذا عادة لقومه، أو جرياً على لسانه من باب تعظيم الخاص الذي يليق بالمخلوق أو ما أشبه ذلك، فهذا يكون من باب الشرك الأصغر.

وهكذا الحلف بالكعبة، وبالأمانة، وبرأس فلان، وحياة فلان، وشرف فلان، فهذه بلايا تقع على ألسنة الناس، ولا سيما في هذا =

....

= الوقت في هذا العصر، في الإذاعات وفي المقالات وفي التلفاز وفي كل مكان.

كل هذه الألفاظ تقع من الجهلة من بعض الذين يذيعون ويتحدثون، ومن بعض الجهلة هنا المقلدة لغيرهم، ومن بعض المصريين وغير المصريين، تقع مثل هذه الكلمات من أناس اعتادوها وتربوا على هذا الشرك الخاص، وربما عاش أكثرهم على الشرك الأكبر، فلا يستغرب أن يقع منهم هذا الشرك*.

---

* س: ما حكم قوله: بذمتي؟

ج: لا أعلم فيها شيئاً، فهذه ليست من باب الحلف؛ يعني: أؤكد هذا في ذمتي وأتحمله في ذمتي.

۞ وقد استوفَى المصنِّفُ ـ رحمه الله ـ بيانَ جنسِ العبادةِ التي يجبُ إخلاصُها لله بالتنبيه على بعضِ أنواعِها، وبيانَ ما يضادّها مِن الشركِ بالله تعالى في العبادات والإرادات والألفاظ؛ كما سيمرُّ بك إن شاء الله تعالى مفصَّلاً في هذا الكتاب، فالله تعالى يرحمه ويرضَى عنه(١). [١٦]

[شرح١٦] الحقيقة أن هذا الكتاب لا نعرف أنه سُبِق إلى مثله، وفي جمعه ما ينبغي أن يعلم من التوحيد وبيان الشرك، وبيان ما قد يظن أنه جائز وليس بجائز، فقد اعتنى في هذا الكتاب بأشياء كثيرة رحمه الله، ولا نعرف أن المؤلف سُبِق إلى مثل هذا، فالله وفقه رحمه الله وقدس روحه، ونفع الله به العباد نفعاً كثيراً من يوم أن ألفه المؤلف إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله ﷻ.

وهذا من فضل الله ورحمته وإحسانه على هذا الرجل جزاه الله خيراً، وعلى الأمة في هذه الجزيرة وغيرها من حيث نبهوا على ما فيه، وأرشدوا إلى ما ينبغي أن يعتقد، وكان هذا الكتاب على ما فيه من الآيات العظيمة والأحاديث الصحيحة والآثار، كان نبراساً =

---

(١) ص٢٧.

....

= لدعاة الحق، وسبيلاً لمن أراد أن يعرف الحق بدليل في باب التوحيد وباب العقيدة، فجزاه الله خيراً، ورفع درجاته في المهديين*.

---

* س: هل قرأتم كتاب «التوحيد» لمحمد قطب؟

ج: ما أتذكر ذلك، لكن ذكر لي بعض الإخوة عنه خللاً في بعض المنهج.

كتاب المقريزي في التوحيد «تجريد التوحيد» يشبه شيئاً من أبواب المؤلف، ولعل المؤلف اطلع عليه واستفاد منه، ونسج على منواله في هذه الأبواب، ولكن ليس مثله من كل وجه، وهذا ما اطلعت عليه من سنوات كثيرة، ويغلب على ظني أنه المقريزي، لكن ما أدري أطبع أم لم يطبع، وفي الجملة لا بأس به، فلا يخلو من أشياء غلط فيها رحمه الله، ولكن كتابه فيه أشياء كثيرة حول العقيدة طيبة، ولكن أنا ما قرأته، وإنما قرأت بعض الشيء.

۞ فإن قلت: هل أتى المصنِّفُ ـ رحمه الله ـ بخُطبَة تُنبِئ عن مَقصَده كما صنَع غيرُه؟ قيل: كأنه ـ والله أعلم ـ اكتفَى بدلالة الترجمة الأولى على مقصوده، فإنه صدَّره بقوله: «كتاب التوحيد» وبالآيات التي ذكرها وما يتبعُها، مما يدلُّ على مقصوده.

فكأنه قال: قَصَدت جمعَ أنواع توحيدِ الإلهيَّة التي وقع أكثرُ الناسِ بالإشراك فيها، وهم لا يشعرون، وبيانَ شيءٍ مما يضادُّ ذلك من أنواع الشرك، فاكتفَى بالتلويح عن التصريح، والألف واللام في «التوحيد» للعَهدِ الذِّهنيِّ[1]. [١٧]

[شرح١٧] كما فعل البخاري رحمه الله، فإن البخاري لم يجعل لكتابه خطبة، وإنما سمى، ثم ذكر باب الوحي وذكر حديث: «إنما الأعمال بالنيات» ثم ذكر ما يتعلق بالوحي ولم يجعل ترجمة، واكتفى بما يظهر من مقدمة كتابه من حديث: الأعمال بالنيات، وبدء الوحي، بأنه سوف يذكر ما صح لديه من الأحاديث فيما أوحى الله =

---

(١) ص٢٧.

....

= إلى نبيه عليه الصلاة والسلام.

فالمقصود أن البخاري رحمه الله لم يجعل خطبة فيها ثبت عنه رحمه الله، وإنما بدأ بالتسمية، واكتفى بما فيها من الثناء على الله جل وعلا، واكتفى بما يكتبه من الأحاديث على بيان مقصده، وأن مقصوده جمع الأحاديث، فالخطبة جعلها أحسن، وإن تركت فلا حرج*.

---

* س: يقول: **الألف واللام في التوحيد للعهد الذهني.**

ج: للذي في ذهن الطالب والقارئ؛ فالعهد الذهني الذي في ذهن الطالب مثلاً: جاء الرجل أعطانا كذا وكذا، فأنت تخاطب إنساناً، والرجل لم تصرح به؛ لأنك تقصد الرجل الذي في ذهنكما وبينكما معروف، عبد الله ابن فلان، جاء الرجل أعطاني كذا وكذا وأعطيته كذا وكذا، فهو معروف عندك وعند صاحبك.

هذا هو معنى العهد الذهني، وقد يأتي العهد الذكري: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥-١٦] فالعهد الذكري الذي مضى قريباً، وهو هنا «الرسول» القريب، والعهد الذهني هو الذي في ذهن المخاطِب والمخاطَب معروف، ولا يجب التصريح به، فالمخاطب به هو التوحيد، والمخاطب بهذا أهل الإسلام، والتوحيد عندهم معروف؛ =

....

= فتوحيد الله جل وعلا في ذهن كل مسلم.

وهذا الكتاب وضع لبيان توحيد الله؛ توحيد العبادة وما يضاده من الشرك الأكبر، أو يضاد كماله كالشرك الأصغر، أو يقدح فيه، أو يدع أو يسخر بأهله من المعاصي، وذكر فيه أيضاً جملة من الوسائل والذرائع التي تصلح الشيء وتقرب منه، هذا موضوع هذا الكتاب.

وذكر فيه ـ رحمه الله ـ ما يتعلق بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ضمناً، وفي بعض الأبواب من باب تكميل المطلوب، فمقصوده الأول بيان توحيد العبادة الذي وقع فيه الشرك من أغلب الناس.

وأما توحيد الربوبية والأسماء والصفات فالأغلب من الناس عدم الشرك به، وإنما وقع من بعض المبتدعة أخيراً في توحيد الأسماء والصفات، وإلا فالأصل أن الكفرة يؤمنون بتوحيد الربوبية، وأن الله ربهم، وأنه كامل في أسمائه وصفاته، هذا محل إجماع بين الكفرة إلا النادر والشاذ من المجوس وأشباههم ، وإلا فغالب الكفرة معترف بأن لهم رباً مدبراً خالقاً رازقاً متصرفاً في الكون ، هذا حال غالب الكفرة.

ولكن وقع منهم الشرك في الآلهة التي جعلوها شفعاء، وجعلوها وسائط كما فعلت العرب وغير العرب،كل طائفة وكل أمة من الأمم لها وسائط توسطها فيما تريد من ربها، فجاءت الرسل بإنكار هذه الوسائط، =

....

= وبيان أن العبادة حق الله وحده، وأنه يدعى بدون واسطة، ويرجى بدون واسطة، ويتقرب إليه بدون واسطة، وأن الواسطة لا تكون في العبادة، إنما تكون في التبليغ والبيان، فالرسل واسطة في البلاغ والبيان لا في أن يعبدوا من دون الله، لا.

فالرسل والعلماء واسطة في البلاغ والبيان، هكذا، وأما العبادة فليس لله واسطة، بل يجب أن يعبد وحده من دون واسطة، فالرسل بعثوا لهذا الأمر ليبينوا أن الواسطة في العبادة باطلة، وإنما الواسطة في البلاغ والبيان من طريق الرسل ومن طريق أتباعهم من علماء الحق.

۞ قوله: وقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. يجوز في (قول الله) الرفعُ والجرُّ، وهكذا حكمُ ما يمرُّ بك من هذا البابِ[1]. [١٨]

[شرح١٨] يعني: كتاب التوحيدِ، باب قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ التوحيد بالجر، ويجوز: قوله، بالرفع؛ فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهذا قولُ الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولكن الجر أظهر: كتاب التوحيدِ، باب قولِ الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

---

(١) ص٢٧.

۞ قال شيخ الإسلام: العبادةُ هي طاعةُ الله بامتثالِ ما أمرَ به على أَلسِنَة الرُّسُل. وقال أيضاً: العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطِنَة والظاهرة[1]. [١٩]

[شرح١٩] والذي عرفناه من هذين التعريفين: العبادة هي طاعة الله ورسوله، وهي امتثال أوامره وترك نواهيه، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فكل هذه العبارات متقاربة؛ فالمقصود أن العبادة التي أمر بها هي التوجه إليه بفعل ما أمر، وترك ما نهى على وجه الإخلاص له، والمحبة له والتعظيم، لا لمجرد العادة، ولهذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله:

وعبادَةُ الرحمَنِ غايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عابِدِهِ هُما قُطبانِ

وعليهما فَلَكُ العبادةِ دائرٌ ... ما دارَ حتى قامتِ القُطبانِ

ومدارُهُ بالأمرِ أمرِ رسولِهِ ... لا بالهوَى والنَّفْسِ والشَّيطانِ

فالمقصود أن العبادة هي التوجه إلى الله بما شرع من أعمال وأقوال ظاهرة وباطنة، فإذا صرف هذا لغيره أو بعضه لغيره صار عبداً لغيره.

---

(١) ص٢٧.

۞ قال ابنُ القيِّم: ومدارها على خمسَ عشرةَ قاعدةً مَن كمَّلها كمَّل مراتبَ العبوديَّة، وبيانُ ذلك أن العبادةَ منقسمةٌ على القلب واللسانِ والجوارحِ، والأحكامُ التي للربوبية خمسةٌ؛ واجبٌ، ومستحبٌّ، وحرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ، وهنَّ لكلِّ واحدٍ من القلب واللسانِ والجوارحِ[1]. [٢٠]

[شرح٢٠] ومن هذا يخرج خمسة عشر؛ ثلاثة في خمسة بخمسة عشر؛ واجب يتعلق بالثلاثة بالقلب واللسان والعمل، وحرام يتعلق بالقلب واللسان والعمل، ومكروه كذلك، ومندوب كذلك، ومباح كذلك، فهذه الخمسة من واجب، ومحرم، ومكروه، ومندوب، ومباح، هذه عبادات الاعتقاد، فالواجب أداؤه في اعتقاد ذلك؛ لأنه واجب ولأنه قربة إلى الله ﷻ، وهكذا المندوب، وهذا واضح في أنه عبادة يؤديها على وجه قربة إلى الله، وأما الحرام والمكروه والمباح كيف يكون عبادة؟

هو عبادة باعتقاد تحريم ما حرم الله، وباعتقاد كراهة ما كرهه الله، وباعتقاد إباحة ما أباحه الله، فهذه عبادة، فهو يعتقد أن الله =

---

(١) ص٢٨.

....

= حرم الزنى، وحرم الخمر، ويعتقد أن ترك الرواتب شيء مكروه، وترك الوتر شيء مكروه، وتضييع الأوقات بغير فائدة شيء مكروه، وما أشبه ذلك، فهذه الأشياء عبادة يتقرب بها إلى الله جل وعلا.

كذلك اعتقاده أن الله أباح لعباده ما أباح من النكاح الشرعي، ومن أمور الشعيرة من الإبل والغنم والبقر، وما أشبه ذلك مما أباح الله اتخاذه، وأن هذا أباحه الله لعباده عبادة أيضاً، وهذا يكون بالقلب في اعتقاد ذلك، ويكون باللسان بالنطق بذلك، ويكون بالعمل بتعاطي ذلك عند الحاجة إليه، هذه خمسة عشر يستقي بها العبد العبادات؛ خمسة في ثلاثة بخمسة عشر؛ قلب ولسان وعمل مضروب في واجب ومحرم ومكروه ومندوب ومباح.

۞ وقال القرطبيُّ: أصلُ العبادةِ التذلُّلُ والخضوعُ، وسُمِّيَت وظائفُ الشرع على المكلفين عباداتٌ؛ لأنهم يلتزِمونها ويفعلُونها خاضعين متذللينَ لله تعالى(١). [٢١]

[شرح٢١] والعبادة أصلها الخضوع والذل في لغة العرب، والتعبد: التذلل والخضوع، ومنه قولهم: طريق معبد: مذلل قد ظهرت فيه آثار الأقدام، وبعير معبَّد: قد شُدّ ورُحل وليس بصعب، فالتكاليف التي أمر الله بها وشرعها سمِّيت عبادات؛ لأنهم يؤدونها بذلٍّ لله وخضوع لهُ واعتراف بأنهم عبيده سبحانه، ولهذا قيل: عبادات؛ فالصلاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والجهاد عبادة.

وكل ما أدوه من الطاعات وترك المعاصي فيسمى عبادة؛ لأنه يؤدى بذلٍّ وخضوع منهم، وهذا واجب عليهم أن يخضعوا لله، وأن يذلوا لعظمته، ويعترفوا بأنهم عبيده، وأنهم تحت تصرفه ﷻ، فهم أذلاء بالنسبة إليه، عبيد مأمورون منهيون، وعزهم ونجاتهم وسعادتهم في هذا الذل وفي هذا الخضوع، فإذا استكبروا صار شقاء لهم، ومن أسباب هلاكهم في الدنيا والآخرة. =

---

(١) ص٢٨.

....

= فالحاصل أن العبادات سميت عبادات؛ لأنها تؤدى بالخضوع والذل لله، ولهذا قيل لجميع ما شرعه الله: عبادات، وقيل للعبد وللإنسان: عبد؛ لأنه خاضع لله، ذليل لله، مملوك لله، يؤدي حق الله في ذل وخضوع، والخضوع للمخلوقين نقص، والخضوع لله عز وشرف.

۞ وقال ابنُ كثيرٍ: العبادةُ في اللغة من الذِّلَّة، يقال: طريق مُعَبَّد وبعيرٌ[١] مُعَبَّدٌ؛ أي: مذلَّل.

وفي الشرع: عبارةٌ عما يجمعُ كمالَ المحبة والخضوع والخوفِ، وهكذا ذكَر غيرُهم من العلماء[٢]. [٢٢]

[شرح٢٢] يعني: كمالها أن تصدر عن خضوع وذل ورغبة ورهبة وحب للمعبود، فإذا كانت العبادة هكذا وقعت موقعها، وإذا أداها الإنسان على غير خضوع، وعلى غير ذل ولا محبة، صارت عادة لا عبادة، ولهذا تقدم قول ابن القيم رحمه الله:

وعبـادَةُ الـرحمنِ غايَـةُ حُبِّـهِ   مـعَ ذُلِّ عابِـدِهِ همـا قُطبـانِ

فلا بد من محبة الله ﷻ، ولا بد من الخضوع له وخوفه ورجائه ﷻ والرغبة إليه، قال جل وعلا للرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

---

(١) في الأصول المطبوعة: «وغير»، وما أثبت من «تفسير ابن كثير» (١/ ١٣٤) ط١، ١٤١٨هـ، دار طيبة.

(٢) ص٢٨.

۞ ومعنى الآية: أن اللهَ تعالى أخبرَ أنَّه ما خَلَق الإنسَ والجنَّ إلا لعبادتِهِ، فهذا هو الحكمةُ في خَلقِهم، ولم يُرِد منهم ما تُرِيدُه السادةُ من عبيدِها من الإعانةِ لهم بالرزقِ والإطعامِ، بل هو الرازِقُ ذو القوَّة المتين، الذي يُطعِم ولا يُطعَم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤][1]. [٢٣]

[شرح٢٣] ولهذا قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ سبحانه وتعالى.

ولم يخلقهم ﷻ لحاجة به إليهم؛ لا ليعز بهم من ذلة، ولا ليتكثَّر بهم من قِلَّة، ولا لحاجة به إليهم يعينوه على مخلوقاته لأنه عاجز، بل خلقهم لمصلحتهم، خلقهم ليوفقهم وليعينهم، وليكلفهم بما فيه نجاتهم وسعادتهم، ليس لحاجة به إليهم ﷻ، فهو خلقهم ليطيعوه =

---

(١) ص٢٨.

....

= ويعظموه، وهذه الطاعة والتعظيم والخوف والرجاء من مصلحتهم هم، فإذا أطاعوه واستقاموا على هذه الأمور التي خُلِقوا لأجلها، صاروا إلى الكرامة والسعادة يوم القيامة والنجاة من النار، وإذا أبوا واستكبروا صاروا إلى النار، نعوذ بالله من ذلك.

فهم خُلِقوا لأمر ينفعهم ويصلحهم في الدنيا والآخرة، خُلِقوا ليطيعوا ربهم وليعبدوه ويعظموه، ويؤثروا فضله وعظمته وعلمه وقدرته ﷻ.

وفي الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢] سبحانه وتعالى، فهو خلقهم لهذه الأمور؛ ليعظموه ويطيعوه ويعترفوا بأنه ربهم وإلههم وخالقهم، وأنه قادر على كل شيء، وأنه العالم بكل شيء ﷻ *.

---

* س: كيف يقال في حق الله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ويقال في حق غيره: هذا رجل متين؟

ج: هذه الأشياء مشتركة، فيقال: هذا رجل قوي، وكذا: الله ذو قوة، =

....

= ولكن بلا مشاكلة، فلكلٍّ ما يناسبه؛ فلله قوة تناسبه، وللمخلوق له ما يناسبه.

س: لكن متين هذه بمعنى القوي الشديد.

ج: كلٌّ له وصفه، فالمخلوقين بمتانتهم لهم وصفهم، وهو في حق الله على وجه يليق به، وهذا لا يعلم كيفيته إلا الله سبحانه، فوصف الله بالمتين وصف يليق به لا يعلم كيفيته إلا الله جل وعلا بخلاف المخلوقين، فوصفهم يليق بهم من متانة من جهة الجسم وغير الجسم، والقوة أو المتانة من جهة العظام، وكبر العظام وقوتها وصلابتها أو غير ذلك

س: يقال: رجل عظيم.

ج: كذلك، عظيم، قوي، سميع، بصير... فلهم ما يليق بهم، والله له ما يليق به ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فهذه أسماء مشتركة، يسمونها متواطئة ـ أي: تجتمع في معنى واحد ـ في جنس القدرات؛ في جنس القوة، في جنس العظمة، وينفرد الرب عز وعلا بما يليق به، وينفرد المخلوقون بما يليق بهم.

فالمخلوق سميع والله سميع، والله بصير والمخلوق بصير، والله عظيم وبعض المخلوقين عظيم، ولكن ليست عظمة الله مثل عظمة المخلوقين، وليس سمعه كسمعهم، ولا بصره كبصرهم، ولا قوته كقوتهم وهكذا، فلله ما يليق به من الصفات، ولسائر المخلوقين ما يليق بهم.

۞ وعبادتُه هي طاعتُه بفعلِ المأمورِ وتَركِ المحظورِ، وذلك هو حقيقةُ دين الإسلامِ؛ لأن معنى الإسلامِ هو الاستسلامُ لله المتضمِّنُ غايةَ الانقياد في غاية الذُّلِّ والخضوعِ[1]. [٢٤]

[شرح٢٤] وبهذا سمي الدين إسلاماً؛ لأنه انقياد لله وذلٌّ لعظمته، فلهذا قيل دين الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] لأنه الانقياد لله ﷻ بفعل المأمور وترك المحظور، يقال: أسلم فلان لفلان: انقاد له، وهم مسلمون: منقادون ذليلون خاضعون، فسمي دين الله إسلاماً لما تضمنه من الذُّلِّ لله والانقياد لأمره ونهيه.

---

(١) ص٢٨.

۞ قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه في الآية: إلا لآمُرَهم أن يعبُدوني، وأدعُوَهُم إلى عبادتي.

وقال مجاهدٌ: إلا لآمُرَهم وأنهاهُم. واختاره الزَّجّاجُ وشيخُ الإسلام.

قال: ويدلُّ على هذا قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] قال الشافعيُّ: لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى.

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧] أي: لولا عبادتُكم إيّاه.

وقد قال في القرآنِ في غيرِ موضعٍ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١] فقد أمرهم بما خُلِقوا له، وأرسل الرسُلَ إلى الجنِّ والإنسِ بذلك.

وهذا المعنَى هو الذي قُصِد بالآية قطعاً، وهو الذي يفهمُه جماهيرُ المسلمين ويحتجُّون بالآية عليه، ويُقِرُّون أن اللهَ إنما خلقَهم ليعبُدوه العبادةَ الشرعيةَ، وهي طاعتُه وطاعةُ رسُلِه، لا ليضيِّعُوا حقَّه الذي خَلَقهم له. =

= قال: وهذه الآيةُ تشبه قولَه تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

ثم قد يُطاع وقد يُعصَى، وكذلك ما خَلَقَهم إلا للعبادة، ثم قد يعبُدُون وقد لا يعبُدُون، وهو سبحانه لم يقل: إنه فَعَلَ الأولَ وهو خَلَقَهم ليفعلَ بهم كلَّهم الثاني، وهو عبادتُه، ولكن ذَكَر الأولَ ليفعلُوا هم الثاني فيكونوا همُ الفاعلينَ له، فيحصُل لهم بفعله سعادتُهم، ويحصُل ما يحبُّه ويرضاه منهم ولهم. انتهى[1]. [٢٥]

[شرح٢٥] والمعنى في هذا أنه ﷻ خلق العباد، فقد يعبدون وقد لا يعبدون، كما أرسل الرسل ليطاعوا، فقد يطاعون وقد لا يطاعون، وكذلك أمرهم بصيام رمضان، وشرع لهم ما شرع ليكملوا العدة وليكبروا الله، ثم قد يكملون وقد لا يكملون، فقد يعصون وقد لا =

---

(١) ص٢٨-٢٩.

....

= يكبرون الله جل وعلا.

فالمقصود أنه فعل هذه الأشياء لهذه الحكم؛ الحكمة من خلق الجن والإنس أن يعبدوا الله ويطيعوه ويعظموه، والحكمة من إرسال الرسل أن يطاعوا حتى يحصل السعادة للعباد، فإن لم يفعلوا قامت عليهم الحجة، وهكذا شرع لهم ما شرع من الصيام؛ ليكملوا العدة، وليكبروا الله على ما هداهم ويشكروه، ثم قد يشكرون وقد يكفرون، وقد يكملون وقد لا يفعلون ذلك، ولم يقل: إنه فعل الأول وهو خلقهم ليفعل بهم كلهم الثاني وهو عبادته؛ لأنه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ما قال: إلا لأجعلكم عابدين، بل قال: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ فنسب العبادة إليه، فهذه الحكمة في خلقهم ليعبدوا الله ويعظموه ويطيعوه، فمن هداه الله منهم امتثل، ومن سبقت له الشقاوة لم يمتثل، وصار مع العاصين ومع المشركين، نسأل الله السلامة.

كذلك الرسل أُرسلوا ليطاعوا، فأكثر الخلق لم يطيعوهم، بل عصوهم وخالفوهم وحاربوهم، بل قتلوا بعضهم، وهذا يبين لك =

....

= أن الحكمة في خلقهم هذا المعنى هو ليعبدوا الله، ولكن ليس المعنى أنهم كلهم يفعلونه، بل قد يفعلون وقد لا يفعلون، فالسعداء الذين سبقت لهم من الله الحسنى، ووفقهم سبحانه وهداهم، واستقاموا وعبدوا، وأكثر الخلق أعرضوا وانحرفوا، نسأل الله السلامة*.

---

* س: هل صحيح أن بني إسرائيل قتلوا في يوم سبعين نبياً، منهم زكريا ويحيى؟

ج: مشهور في الأخبار، ولكن لا أذكر فيه شيئاً صحيحاً عن النبي ﷺ، وإنما هو في أخبار بني إسرائيل، لكن كلام الله يكفي، فهم يقتلون الأنبياء بغير حق؛ يعني: هم قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، أما العدد فالله أعلم.

۞ والآيةُ دالَّةٌ على وجوب اختصاصِ الخالق تعالى بالعبادةِ؛ لأنه سبحانه:

١- هو ابتَدأكَ بخَلقِكَ والإنعامِ عليكَ بقدرته ومشيئتهِ ورحمته من غير سببٍ منكَ أصلاً، وما فعلَه بك لا يقدِرُ عليه غيرُه، ثم إذا احتجتَ إليه في جلبِ رزقٍ أو دفعِ ضُرٍّ، فهو الذي يأتي بالرزقِ لا يأتي به غيرُه، وهو الذي يدفعُ الضُّرَّ لا يدفعُه غيرُه، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠-٢١].

٢- وهو سبحانه ينعِمُ عليك ويحسِنُ إليك بنفسه، فإن ذلك موجبُ ما تسمَّى به ووصفَ به نفسَه.

إذ هو الرحمنُ الرحيمُ الودودُ المجيدُ، وهو قادرٌ بنفسِه، وقدرتُه من لوازمِ ذاته، وكذلك رحمتُه وعلمُه وحكمتُه لا يحتاج إلى خلقه بوجهٍ من الوجوه، بل هو الغنيُّ عن العالمين ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ =

= [النمل:٤٠].

فالربُّ سبحانه غنيٌّ بنفسِه، وما يستحِقُّه من صفات الكمالِ ثابتٌ له بنفسِه، واجبٌ له من لوازم ذاتِه، لا يفتقِرُ في شيءٍ من ذلك إلى غيره، فَفِعلُه وإحسانُه وجُودُه من كمالِه، لا يفعل شيئاً لحاجةٍ إلى غيرِه بوجهٍ من الوجوه، بل كلُّ ما يريده فَعَلَه فإنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧، البروج:١٦]، وهو سبحانه ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٣]، فكلُّ ما يَطلُبه فهو يبلُغه ويناله ويَصِلُ إليه وحدَه، ولا يعينُه أحدٌ، ولا يعوقُه أحدٌ، لا يحتاجُ في شيءٍ من أمورِه إلى مُعينٍ، وما له من المخلوقين ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢] وليس ﴿لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]. قاله شيخ الإسلام(١).

قال: وقولُه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية [النحل:٣٦]، قالوا: الطاغوتُ مشتقٌّ من الطُّغيانِ، وهو مجاوزة الحدِّ، وقد فسَّره =

---

(١) قال سماحة الشيخ: يعني: قال هذا البحث. اهـ. وانظر: «مجموع الفتاوي» ١/ ٣٧-٣٨.

= السلفُ ببعض أفرادِه.

قال عمرُ بن الخطاب ﷺ: الطاغوتُ: الشيطانُ.

وقال جابر ﷺ: الطواغيتُ: كُهّانٌ كانت تَنزِلُ عليهم الشياطين. رواهما ابن أبي حاتم.

وقال مجاهد: الطاغوتُ: الشيطانُ في صورةِ الإنسانِ، يتحاكمون إليه، وهو صاحبُ أمرِهم.

وقال مالكٌ: الطاغوتُ: كلُّ ما عُبِد من دون الله.

قلت: وهو صحيحٌ، لكن لا بُدَّ فيه مِن استثناءِ مَن لا يرضَى بعبادتِه[1]. [٢٦]

[شرح٢٦] يعني: يقول: المعنى صحيح لكنه عام. ومراد مالك رحمه الله: من يرضى بعبادة الجمادات وأشباهها، وليس مراد مالك ـ رحمه الله ـ أنه يدخل في ذلك الأنبياء والرسل والأولياء الذين لا يرضون بالشرك، فهو غير داخل عند الجميع، وإنما أراد بهذا ما عُبِد من دون الله وهو راضٍ بذلك، أو ليس بعاقل كالأصنام والأشجار =

---

(١) ص٢٩.

....

= والأحجار والكواكب، تسمى طواغيت.

فما عُبِد من دون الله فهو طاغوت، لكن إذا كان لا يرضى بهذا فالطاغوت الشيطان إذا دعا إلى ذلك وزين عبادته من دون الله، فشيطانه هو طاغوته الذي زين له الباطل، وتسمى الأوثان طواغيت، ويسمى الكهان طواغيت، وتسمى الكواكب المعبودة من دون الله طواغيت.

وقد ذكر لك أنهم قالوا: إنه مشتق من الطغيان، والذي قاله أهل اللغة؛ أنه مشتق من الطغيان، وهو تجاوز الحد، وقد طغى الماء إذا جاوز حدوده، وطغى فلان إذا جاوز حده الذي ينبغي له، فالطغيان تجاوز الحدود في عمل الإنسان، أو في عقيدته أو في قوله، وسمي المعبود من دون الله وهو أحق أن يشبه بالطاغوت؛ لأنه جاوز حده؛ لأن حد الناس أن يكونوا كلهم عبيد الله، وكلهم في حكم العبيد لله، ليسوا بآلهة معبودة مع الله جل وعلا، فكلهم يجب عليه أن يكون متقيداً بشرع الله إذا خرج عن ذلك صار طاغوتاً بهذا المعنى. =

....

= لكن إذا كان لم يرض بذلك، وإنما أخرجه الناس وعبدوه من دون الله، فهذا ليس هو الطاغوت، وإنما الطاغوت الشيطان الذي زين ذلك، والذين فعلوا ذلك هم طواغيت لخروجهم عن حد الله، وأنبأ أنه يبرأ إلى الله منهم؛ الرسول والملك والنبي والرجل الصالح والجني الصالح وما أشبه ذلك، كلهم يبرؤون مِن عَمَل مَن عَمِل بهم ما عمل من الشرك، وكلهم لا يرضون بذلك ويبرؤون إلى الله منه. ويدخل في هذا فرعون الطاغوت الداعي إلى هذا*.

*** س: بعض المتكلمين إذا تكلم خصوصاً عن آلات اللهو وآلات الطرب يقول: وهذه الأوثان عبدت من دون الله، يقصد التلفاز وغيره. هل هذه العبارة صحيحة؟**

ج: يروى عن علي هذا المعنى في ما يفعله الناس من آلات الملاهي، يروى من باب الزجر ومن باب التحذير، لكن المقصود بالتماثيل، والمقصود بالطواغيت حقيقة هي المعبودة من دون الله مثل ما قال إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٢-٥٣].

فهذه الأصنام تماثيل؛ لأنها تصور على صورة ملك من الملائكة أو =

....

= ملك من الملوك، أو صورة عابد، أو صورة صنم مشهور عندهم على صورة أسد أو على صورة نمر، أو على غير ذلك. فالحاصل أن الأصنام في الأصل شيء ينحت ويصور على ما يعظمونه على صورة ملك أو نبي أو ملك من الملوك أو كذا أو كذا مما يعظمون.

س: والشطرنج؟

ج: يروى عن علي أنه قال في الشطرنج: ما هذه التماثيل التي نراكم عليها عاكفين؟ ولعلها الآن في الملاهي، وشبههم بعباد الأصنام وأشباههم لعكوفهم عليها، وأُنسِهم بهذا اللهو وشغلهم به عن الحق، وهذا من باب التنفير.

س: هل قول علي هذا صحيح؟

ج: ما أتذكر هذا، هو مروي ولكن ما أتذكر حاله[1].

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» ١/ ٢١٢.

۞ وقال ابنُ القيِّم: الطاغوتُ ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فطاغوتُ كلِّ قومٍ مَن يتحاكمون إليه غيرَ الله ورسولِه، أو يعبدونه مِن دون الله، أو يتبعُونَه على غيرِ بصيرةٍ من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعةٌ لله.

فهذه طواغيت العالَـمِ، إذا تأمَّلتَها وتأمَّلتَ أحوالَ الناسِ معها رأيتَ أكثَرهم ممن أعرضَ عن عبادةِ الله إلى عبادةِ الطاغوتِ، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته[1].[2] [٢٧]

[شرح٢٧] هذا المعنى ما تجاوز به العبد حده يعني: ما حدَّه الله له، سواء كان المتجاوز معبوداً كفرعون وأشباهه، أو متبوعاً في غير شريعة الله، أو مطاعاً فيما يحكم به بين الناس بغير الحق، هذا حدٌّ جامع يجمع بين الطواغيت، فيدخل في ذلك المعبود من دون الله، والحاكم بغير شريعة الله، والمتبوع في غير الحق؛ لرياسته في قبيلة، أو لكونه عالماً، أو لكونه ملكاً، أو ما أشبه ذلك. =

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٤٨)، ط. دار الحديث ١٤٢٥هـ.

(٢) ص٣٠.

....

= فإذا تبعوه في الباطل، ولم ينظروا في الدليل، فقد جعلوه طاغوتاً، فهو لهم طاغوت، لكن إذا كان لم يرض بذلك، ولم يدع إليه فهم الآثمون؛ إذ هم الذين جعلوه طاغوتاً وهو ليس بطاغوت بنفسه؛ لأنه لا يرضى بذلك، ولا يقرهم على هذا الباطل لو كان حياً.

هم يكونون طواغيت بالحدِّ هذا لأنهم جاوزوا حدودهم، جاوزوا الحد الذي حد لهم أن يستقيموا على شرع الله، وأن يعبدوا الله، فإذا جاوزوه بعبادة غيره، أو تحكيم غير شريعته، كانوا هم الطواغيت، وهم المسؤولون، لكن هم مع ذلك عملوا الطاغوت أيضاً وحكموه، وهو الشيطان الذي دعاهم إلى هذا الشيء، الشيطان طاغوت أيضاً.

۞ وأما معنى الآيةِ فأخبرَ تعالى أنه بعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٣٦]، أي: في كلِّ طائفةٍ وقَرنٍ من الناس ﴿رَّسُولًا﴾ [النحل:٣٦] بهذه الكلمة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] أي: اعبدوا اللهَ وحدَه واتركُوا عبادةَ ما سواه، فلهذا خُلِقَت الخليقةُ، وأُرسِلت الرُّسُل، وأُنزِلت الكُتُب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد:٣٦].

وهذه الآيةُ هي معنى «لا إلهَ إلا اللهُ» فإنها تضمَّنت النفيَ والإثباتَ كما تضمَّنته «لا إلهَ إلا اللهُ» ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الإثباتُ، وفي قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النفيُ.

فدلَّت الآيةُ على أنه لا بُدَّ في الإسلام من النفي والإثباتِ، فيُثبِت العبادةَ لله وحدَه، وينفي عبادةَ ما سواه، وهو التوحيدُ =

= الذي تضمَّنته سورةُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وهو معنى قولِه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦][(١)]. [٢٨]

[شرح٢٨] معنى الكفر بالطاغوت هو معنى «لا إله» لأن «لا إله» تقتضي إنكار عبادة غير الله، وإبطالها واعتقاد بطلانها بالقلب، والبراءة من ذلك ومن فاعله، ويؤمن بالله معناه «لا إله إلا الله» يؤمن بالله رباً وإلهاً ومعبوداً بالحق دون كل ما سواه ﷻ، فهذا يتضمن أيضاً معنى «لا إله إلا الله» وهذه الحكمة في إرسال الرسل كما هي الحكمة في خلق الخليقة.

فالخلق خُلِقوا ليعبدوا الله وحده، ويطيعوا أمره، ويستقيموا على شريعته، والرسل بعثوا لهذا الأمر للدعوة إليه، وتقريره وإيضاحه، وضرب الأمثال له، وبيان حق أهله الذين استقاموا عليه، وبيان عقوبات من خالف ذلك في الدنيا والآخرة، وبيان صفات هؤلاء، وبيان صفات هؤلاء، هكذا جاءت الرسل، وهكذا =

---

(١) ص٣٠.

....

= جاءت الكتب.

فالرسل أرسلوا لهذا الغرض، والخلق خلقوا لهذا الغرض، خلقوا ليعبدوا الله ويطيعوه، فيكون لهم الثواب العظيم، والعاقبة الحميدة، والله غني عنهم وعن أعمالهم ﷻ، وأُرسِلت الرسل؛ ليدعوا الناس إلى هذا الخير الذي خلقوا له، وليوضحوا لهم أنهم خلقوا لهذا، ولم يخلقوا من أجل أن يأكلوا ويشربوا، أو يبنوا القصور، أو يغرسوا الأشجار، أو يشقوا الأنهار، أو ما أشبه ذلك.

وإن كانت هذه لهم، يسرها الله لهم، وأباحها لهم، ليستعينوا بها على طاعته، لكن لم يخلقوا لها وإنما خلقت لهم هي؛ ليستعينوا بها على طاعته وعبادته جل وعلا، وإنما خلقوا هم ليعبدوا الله ويعظموه، سواء في البر أو في البحر أو في الجو أو في الأرض أو في أي مكان، وسواء في البناء أو في الصحراء أو في أي مكان، ولكن الله يسر لهم ما يعينهم على اتقاء الحر والبرد والشمس والمطر وغير ذلك، وما يعينهم على قوام حياتهم من الأكل والشرب ونحو ذلك.

فالله خلق الخلق ليعبدوه، وخلق لهم ما في الأرض ليستعينوا به =

....

= على طاعته: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ويسر لهم الأرزاق؛ ليقيم الحجة، ويقطع المعذرة بإرسال الرسل وإيجاد ما يعينهم على طاعة الله ﷻ.

فأكثر الخلق أعرض عن هذا وتبع هواه وشيطانه، هذا حال أكثر الخلق كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] والقليلون هم الذين أجابوا الرسل، وانقادوا للحق الذي خالف أهواءهم، واستقاموا عليه، ووالوا عليه، وعادوا عليه، هؤلاء هم الأقلون كما قال ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠]، وقال في بعض قصص الأنبياء: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٨-٩].

فأكثر الخلق إنما يستجيب لهواه، وما تميل له نفسه من عمل أو =

....

= أكل أو شرب أو صداقة أو بغضاء أو غير ذلك، هذا حال أكثر الخلق إلا من آمن بالله وما جاءت به الرسل، فآثر ما أمر الله به ورسوله على هوى نفسه، وعلى ميل نفسه، وعلى شهوته، وهم الأقلون، وهم الأخيار من عباد الله، وهم الصفوة من الجن والإنس.